الرأي العام الاجتماعي

ليس فيما نشره الأستاذ سلامة موسى في المقتطف عن الرأي الاجتماعي ولا فيما ردّ به عليه الأستاذ محمد الديب، تحديدٌ للرأي العام أو للرأي الاجتماعي أو تعريف لهما. ولكي يعلم القارىء ماذا يريد كلٌّ منهما بالرأيين أو بأحدهما إذا كانا يعنيان معنىً واحداً، أرجو أن لا أكون متطفلاً أو فضولياً اذا استأذنتهما أن أقول كلمة في هذا الموضوع، فان لم ترق لهما أو للقراء فليعرضوا عنها كما يعرضون عن كثير من كتابات الكتّاب التي لا تصادف استحساناً عامّاً.

الرأي العام أو الرأي الاجتماعي قول مبهم بعض الابهام كما سيظهر في سياق هذا البحث.

لا يخفى أن أكثر العموميات كالشعور المشترك والرغبات العامة والاحساس الأدبي والرأي المنتشر وإرادة الأمة أو الجمهور ونحو ذلك، إنما هي عناصر «العقل الاجتماعي» أو «التفكير الاجتماعي». ومن معلوم أن نتيجة الاجتماع الأولى هي نشوء العقل الفردي ثم تطوره. والنتيجة الثانية نشوء العقل الاجتماعي أو العقل العام.

العقل العام هو أن يشترك الجماعة في تفكير واحد ويتلقوا أو يعلموا معرفة واحدة، ويتفقوا من غير تواطؤ اتفاقاً واحداً في الآداب والعقائد والعادات، ويمضوا جميعاً تحت تأثير قوانين واحدة. وبموجب هذا التوحيد يسلكون سلوكاً واحداً في عموميّاتهم من غير تعمّل أو تصنّع.

ولا يجوز الخلط بين «العقل الاجتماعي» و «الوعي الاجتماعي» الدارج على أقلام الكتّاب في هذه الأيام. فهم يعنون «بالوعي» الوجدان. وما هما بمعنى واحد. فما الوعي إلاّ حفظ الشيء مادّيّاً كان أو عقليّاً. والوجدان أشمل وأعمق وأعمّ من العقل، فهو إدراك الانسان نفسه وإدراك انه يدرك وإدراك أن مدركاته الباطنة والظاهرة صادرة منه. فلا يصلح لفظ الوجدان «الوجدان الاجتماعي». ولا نرى أن للاجتماع وجداناً إلاّ في الجماعات

العريقة في التفكير كالجمعيات السياسية والعلمية ، ونحوها ومع ذلك يكون وجدانها ضئيلاً.

دعنا ممن دائرة « العقل الاجتماعي » : الرأي العام الاجتماعي بواسع معناه واطلاقه هو من مواليد العقل الاجتماعي . فاذا شرّحناه تشريحاً عقليًا اجتماعيًا لا نجد رأياً اجتماعيًا عامًا بتاتاً . بل نجد رأياً اجتماعيًا خاصًا لا عامًا .

كل ما اصطلح عليه القوم أو معظمهم من عادات وعقائد وآداب ومعاملات نسميه رأياً اجتماعيًا عامًا على ان كثيراً من هذه المصطلحات متقادمة العهد كالعقائد الدينية أو القوانين المدنية أو الآداب العمومية فنسميها تقاليد Traditions ونحسبها آراء عمومية ولا داعي لنعتها « بالاجتماعية » مع نعتها بالعمومية لأنه لا يكون الرأي عموميًا إلاّ وهو اجتماعي . وكلما كانت متقادمة الزمن كانت تقاليد مستحجرة أي انه يتعذر نقضها أو تنقيحها بل يكاد يستحيل . وإذا نشأت الى جانبها عقيدة جديدة أو عادة جديدة واردة من خارج البلاد حدث بينهما صدام ونزاع قد يؤدي الى حرب . والغالب ان القديم المستحجر ينتصر في النزاع . كم مرّ من ألوف السنين على أحياء المصريين القدماء . فما تقلقلت إلاّ بعد أن طغى على البلاد الغزاة الأجانب من الغرب من اغريق ورومان .

وكم مرّ على اليهودية من مئات السنين وكم هاجمها العقائد الجديدة النصرانية والاسلام فنقّلت ولكنها لم تزل باقية متمسكة بتقديمها .

واكتشف منذ مئات من السنين أن الحساب الشمسي مغلوط وبقي معمولاً به لأنه تقليد قديم الى أن تجرّأ أحد أحبار النصارى وصححه وأجرى التصحيح بسلطة تقليد أقوى منه وهي السلطة الدينية. فجرت عليه الكنائس الغربية الكاثوليكية والبروتستانتية وبقيت الكنائس الشرقية الارثوذكسية مصرّة على الحساب القديم المغلوط مئات من السنين وما قبلها إلاّ حديثاً .

كانت العمة غطاء الرأس عند الاتراك وقد أخذوها من العرب. فلما انصلوا بالاغريق أخذ السلاطين الطربوش عنهم فأخذه معظم الشعب العثماني من قبيل تشبه الشعب بحكامه . ولكن جانباً كبيراً منهم لا يزالون يعتمّون الى اليوم . وبقي الطربوش شعار العثمانية حتى الآن على ازعم من أن الاغريق نبذوه . وبقي هذا الميراث الاغريقي عندنا في مصر والشام على

الرغم من أن الأتراك نبذوه مكرهين بحكم الحاكم بأمره مصطفى كمال الذي اتخذ اتاتورك اسماً له نابذاً الاسم العربي كرهاً في كل ما هو عربي.

وعلى الرغم من أن مصطفى كمال أمر بقوة استبداده أن تكتب التركية بالحرف اللاتيني لا يزال الأتراك يثنون استهجاناً لهذا الحرف الذي لا يلائم لغتهم لأنها تحتوي على ٦٥ في المئة من الكلمات العربية وأكثر اشتقاقاتها عربية أيضاً فيفضل أن يكون حرفها عربياً.

ونحن كلما همنا أن ننبذ الطربوش لأنه أقل صلاحية من القبعة في هجير الصيف نكصنا الى الوراء لأن التقليد القديم مستحجر لا يلين لمكسّر.

وهناك ألف شاهد وشاهد على أن التقاليد كلما تقاربت تحجرت وصعب جداً تنقيحها بما هو أفضل منها أو تعديلها بمقتضى تطور البيئة الاجتماعية.

انظر الى لغتنا العربية كم عبر عليها من الأجيال والقرون فتطوّرت ببطء كلي على مدى هذه الأحقاب، حتى انها لم تبتعد كثيراً عن شقيقتيها السريانية والعبرية، مع انك لا تكاد تفهم الآن كثيراً من أشعار الجاهلية والموغلين في قدمها. ومع ذلك لا تقدر الآن أن تنتقح شيئاً من صرفها أو نحوها مما يخالف المعقول والاقتصاد في التعبير والقراءة والكتابة والزمان. فما زلت لا تجسر أن تنصب جمع المؤنث السالم بالفتحة قياساً على قاعدة النصب العامة بل يجب أن تنصبه بالكسرة وإلاّ كفرت باللغة. ولا تجرؤ أن تجر الاسم الممنوع من الصرف بالكسرة حسب قاعدة الجر العمومية، بل يجب أن تجره بالفتحة كابراهيم مثلاً. لماذا هذا وذاك! لا تدري. وإن أعطيت سبباً كان تعلّلاً لا يسوّغ هذا الاستهجان. وفوق ذلك كثيراً من قواعد اللغة التي لا تنطبق على منطق سليم ولا هي من المحاسن والمحامد بل بالعكس هي من المستقبحات كالمستثنيات. فمنها نون التوكيد المشدّدة والمخفّفة التي تضعضع عقل الطالب لتنوّع قواعدها ولا تزوم لها مع وجود أساليب أخرى للتوكيد المنوع للنفي مثل إن واللام والقسم.

ومن هذا القبيل قواعد النسبة التي لا ترتكز على أساس. وقاعدة فعول وفعيل وقاعدة تخالف العدد والمعدود الى غير ذلك مما لا يحصى من عيوب قواعد اللغة التي لا يمكن أن تحفظ وتستذكر وليس فيها تسهيل للكلام وفهم الكلام. كل هذه تقاليد مستحجرة.

هذا هو الرأي العام اليائس الصلب الأصم الذي لا تستطيع أن تعارضه أو تقاومه . فاتركه للزمن يعمل فيه عمله .

هذه التقاليد المستحجرة التي لا تعد ولا تحصى هي آراء عامة تسلسلت الينا من الأزمنة المتقادمة ولا ريب انها تطورت ببطء كلي بمقتضى سنة التطور . كانت كثيراً في تطورها أو ان ذويها كانوا جداً في تعويقها بمقتضى تطورات الزمن . وكان كلما أصبح تقليد غير صالح للزمن قام أناس يرتئون تنقيحه فلقوا من أهله عنتاً واضطهاداً يعدم عنه . ولذلك كانوا يستعزون أنصاراً لهم بالاقناع والدعاية ومع ذلك قد ضحوا في سبيل دعوتهم . فيسوع صُلب ، ومحمد اضطهده قومه ، وسقراط حكم قومه بموته ، وغاليليو عذبوه ، ولولا إنحناءه مكرهاً لقتلوه . كل يوم يجد القوم عقيدة قديمة لم تعد صالحة لزمنهم فيهبون لتعديلها أو تنقيحها أو نبذها وابدال غيرها بها . فيكون تجديدهم رأياً جديداً . لا يصح أن نسميه رأياً عاماً الآن هناك أنصاراً للقديم يقومون ضدهم . هذا هو منشأ الأحزاب . ومتى قلت «أحزاب» فلا تقل رأي عام . لأن التحزب يعني انقسام الآراء وتضادها وتعددها .

الرأي الذي يصح أن يسمى رأياً عاماً يشترك فيه سواد القوم هو التقليد القديم المستحجر . الاسلام هو رأي عام . النصرانية هي رأي عام . كذلك البطولة والسترة والقمة رأي عام . الخلق الأدبي أو الأدب الخلقي الذي تتخلق به أمة من الأمم هو رأي عام . تناول الطعام بأصابع اليد عند البدو هو رأي عام .

ومتى قامت الى جانب كل عقيدة أو عادة أو أي تقليد قديم بدعة جديدة تنازعه مقامه يأخذ ذلك القديم يتداعى ويضعف الرأي فيه ، كلما استحلت البدعة الجديدة . هكذا البروتستنتية تجاه الكثلكة . الحكم الملكي المطلق رأي عام كان واسع الانتشار . فلما قامت الديموقراطية الى جنبه صار يتداعى ونشأت آراء اجتماعية جديدة . فالرأي العام هنا تقلص أو بالأحرى تفكك الى آراء متعارضة لم يبق رأي يقال انه رأي عام . متى تفتت التقليد المستحجر أفل الرأي العام . ونشأت آراء غير عامة . فالرأي العام بكل معنى الكلمة غير موجود . التقليد القديم المستحجر هو الرأي العام الأثري المحفوظ في المتحف الاجتماعي

كفى ما تقدم من تبيان حقيقة الرأي الاجتماعي العام . فلننعطف الآن الى الرأي الاجتماعي

غير العام وهو ما أظن أن الأستاذ سلامة موسى والأستاذ محمد الديب يعنيانه .

وهذا أيضاً غير موجود بتاتاً معناه . لأن سواد الامة لا يعرفه وان كان يدّعيه . عندنا الآن رأي اجتماعي ويمكنك أن تسميه عاماً أيضاً . وهو رأي « الاماني القومية » يمكنك أن تقول لي ان جميع أفراد الأمة يدّعون هذا الرأي كما يدّعون الاسلام مثلاً أو الحكم النيابي أو قدسية مناسك الحج . ولكن هل يمكنك أن تقول لي كم واحد في الامة من السبعة عشر مليوناً يفهمون ما هي هذه الأماني القومية ؟ وهل الذين يفهمونها يتفقون على معانيها ونصوصها ؟ وهل هم متفقون على كيفية تحصيلها ؟ لعلّ واحداً في الالف يفهم هذه الاماني ، وواحداً في المئة ألف يتفقون على صيغتها ، وواحداً في المليون لهم أساليب مختلفة في كيفية تحصيلها . فانظر إذاً كم حزب في رأي الاماني القومية . بل كم رأي تفرّع من هذا الرأي . وكم عدد المتشيعين لأي رأي فيها . فأين هو الرأي الاجتماعي (العام أو غير العام) في هذه المسألة أو في غيرها .

هنا تقول لي نلجأ الى استفتاء الامة عن طريق مجلس النواب عن أي الآراء أصح أو هو المطلوب دون سواه ، على اعتقاد أن الامة كلها متعلمة ومتنوّرة كالامة الاميركية مثلاً .

نعني اننا نعود الى اشتراط شرطي الاستاذ سلامة موسى للحصول على رأي أكثرية الامة أي أن يكون أفراد الامة جميعاً قادرين على تحصيل الثقافة الكافية للحكم بين الجيّد والسيء . وثانياً أن تكون لهم حرية الكلام في اختيار الرأي الذي يستحسنونه .

جميع الامم العربية (ولا يهمنا غيرها) غير حاصلة على أي شرط من هذين الشرطين لا المعرفة ولا الحرية . لأن النظام الديموقراطي عندنا صوري لا حقيقة له لسببين : أولاً لأن الجهل يسود الجانب الأكبر من هذه الأمم ، وثانياً لأن الاخلاق ضعيفة جداً . وكلا السببين مستفحلٌ والله أعلم بالوسيلة الناجعة في علاجهما .

حتى في البلاد الراقية ثقافة وأخلاقاً لا تضمن وجود رأي اجتماعي ثم تحسبه هو رأي الاغلبية الساحقة حتى ولا رأي الاكثرية لكي تسميه تجوزاً رأياً عاماً . لأن هناك عوامل كثيرة تفسد الرأي العام الاجتماعي وتنقض الحرية . كفى بالقوة الرأسمالية إفساداً ومقتلاً للحرية . وأخيراً أرجو المعذرة من حضرة الكاتبين الاديبين اذا كان في مقالي ما لا يروق لهما .

فريد الخراط